

ازمة الحرّية في الرواية العربيّة المعاصرة

صبري حافظ

ليس ثمة شك في ان ازمة الحرية واحدة من أهم قضايا عالمنا المعاصر . بل انها على الصعيد العربي اهم هذه القضايا دون جدال . فغياب التقاليد الديمقراطية من واجهة الحكم ، ووقوع الوطن العربي لفترات طويلة تحت وطأة المدّ الاستعماري الذي بلغ مداه مع مطلع هذا القرن ، والمصادرة المستمرة لحرية الجماهير الشعبية ، وعدم تمكن هذه الجماهير من السيطرة على القوى الموجهة لمقدراتها ، وتوالي الحكومات العميلة والمتعسفة على ارض هذا الواقع ، وغير هذا من العوامل المتشابكة ، — هي التي مركزت ازمة الحرية في المكان المحوري من لوحة الازمات في واقعنا العربي المعاصر ، الذي يعبق التخلف الحضاري الشديد في سراديبه ، كل سراديبه . فهياً تضخم هذا التخلف واستمراريته غياب الحد الأدنى من صراع الفكر الذي تسمح به حتى الحرية بمفهومها البرجوازي المتخلف ، والذي ازدهرت في ردهاته الحضارة الاوربية في القرن الماضي ؛ وان كانت هذه الحضارة ، ورغم وجود هذا الحد الأدنى من الحرية البرجوازية ، تعاني الآن من ازمة مريرة تروي من غياب الفلسفات المبررة لتفسخ هذه الحضارة ، بعد ان التهم تضخمها كل شروطها الانسانية التي نثرتها في المهذ حول مواقع خطاها رغم كل صرخات سبينغلر وتوينبي وولسن ورائدال ووايتهد وغيرهم .

لذلك فان كافة قضايا الواقع العربي على ارتباط ما بهذه القضية ، ابتداء من البثرات الاجتماعية الصغيرة التي تظهر كالطفح على وجه واقعنا المجتمعي ، حتى اكبر مشاكله السياسية والفكرية واكثرها تعقيداً . وهذا هو ما يجعلنا نعثر على معالجات لهذه القضية من اكثر من وجه من وجوها الاجتماعية او الاقتصادية او الفكرية في شتى كتابات فنانينا من شعر ورواية ومسرح واقصوصة . بل نكاد نجزم بأنه ليس ثمة كاتب عربي غلص في الالتصاق بأرض الواقع لم يعالج هذه المشكلة في كتاباته بوجه من الوجوه .

ففي كافة أرجاء الوطن العربي كانت هذه القضية وما زالت اكثر قضايا الواقع إلحاحاً للمعالجة ، ذلك لالتحام هذه القضية بطبيعة تكوين علاقات الانتاج في المجتمع ، ولارتباطها في فترات طويلة بقضية الاستقلال . وهذا هو ما دفع كافة الاتجاهات ، يمينية كانت او

يسارية او بين بين ، الى تحديد موقفها بصرامة - وعلى الصعيد الفكري خاصة - تجاه هذه القضية . غير ان نوعية ظروف كل بلد بعد حصوله على جزئية الاستقلال ، غيرت بشكل حاد من موقف اغلب الاتجاهات الفكرية تجاه هذه القضية . اذ تذبذب هذا الموقف بين التجاهل التام او التجديف بانتفاء وجودها على الاطلاق - وخاصة في المرحلة التي احتلت فيها هذه القضية مكان البؤرة من لوحة ازمات الواقع ، بعد تحقيق الاستقلال . ولا يسعنا الا ان نقول بأن العناق الدائم بين قضيتي الاستقلال والحرية قد جنى بصورة واضحة على القضية الاخيرة ، اذ ارتبطت في اذهان الكثيرين بالقضية الاولى ، ومن ثم خيل اليهم بعد تحقيق الاستقلال ان القضيتين قد حلستا . بينما كانت قضية الحرية اكثر تأزماً بعد تحقيق هذا الاستقلال منها قبله ، اذ ان غياب التقاليد الديمقراطية من حكم يدعي الوطنية والتمثيل الحقيقي للمصالح الشعبية ، يجعل القضية اكثر ضراوة مما كانت عليه في مرحلة الاستعمار . والذي يهمننا في هذه الدراسة ، بعد هذه المقدمة القصيرة ، ان تنصيد الطرح الروائي لهذه القضية دون بقية الاجناس الادبية الاخرى ، التي نرجو ان تتاح لنا معالجتها في دراسات قادمة .

ورغم ان عمر الرواية العربية بالمعنى الصحيح لم يتجاوز النصف قرن ، الا اننا نلاحظ وفرة نسبية في الانتاج الروائي وخاصة في السنوات الاخيرة . ونجد ان كل الروائيين الصادقين في التعبير عن واقعهم الحضاري بكل ما فيه من تناقضات ، قد عالجوا هذه القضية بوجه من الوجوه . بل اننا نجد ان ثمة روائيين شغلوا بهذه القضية دون سواها من قضايا الواقع ، كالروائي المصري عبد الرحمن الشرقاوي الذي جاء تناوله لكافة قضايا الواقع المصري ضمن اطار معالجته الاساسية لهذه القضية التي تحتل المكان المحوري في رواياته الثلاث : « الارض » و « قلوب خالية » و « الشوارع الخلفية » . كما نجد ان روائياً آخر كنجيب محفوظ رصد ابعاد هذه الازمة في كافة رواياته ، وعبر مراحل تطوره الروائي المختلفة . بينما عالجها آخرون ضمن كثير من رواياتهم ، مثل يوسف ادريس وسهيل ادريس ومطاع صفدي وعبد السلام العجيلي وغيرهم . في كافة هذه الاعمال الروائية تأرجح الطرح الفني للقضية بين التناول العميق لكافة الابعاد الراسمة للمجتمع ، وبين الطرح التجريدي والتناول الشكلي للمجتمع وابعادها . لذلك سوف نحاول

ان ندرس القضية لدى كل كاتب على حدة ، وان نتصيد ابعاد رؤيته لكافة زواياها .
ولنبداً بعبد الرحمن الشرقاوي الذي استحوذت هذه القضية على كل اعماله ، من رواية
الى شعر الى اقصوصة الى مسرحية . وليس هذا غريباً على عبد الرحمن الشرقاوي ، فهو
الى جانب التزامه الصارم للواقعية كمنهج في التفكير وفي التعبير ، قد عاش ينساعة شبابه
وسط دمدومات تفجر مراحل الغضب الشعبي العارم في معارك كفاحنا الدامية من اجل
الحرية ، المعارك التي كانت علماً على تلك الفترة الواقعة بين اعوام ١٩٢٨ - ١٩٣٦ حيث
تتابعت حكومات العهد السياسي على وجه مصر - محمد محمود ، اسماعيل صدقي ، عبد
الفتاح يحيى ، توفيق نسيم - بعد ان عطلت حكومة « اليد الحديدية » برئاسة محمد محمود
دستور سنة ١٩٢٣ ، وبعد ان صادر اسماعيل صدقي كافة الحريات الشعبية عام ١٩٣٠
معبراً عن ارادة الرأسمال العميل المتحالف مع كبار ملاك الاراضي ، ضارباً البرجوازية
المصرية التي عانت آلام المحاض في ثورة ١٩١٩ . فألغى دستور ١٩٢٣ وجاء بدستور
١٩٣٠ الذي منح الملك سلطات واسعة للغاية ، وصادر حرية الصحافة ، وطبق قانون
مطبوعات ١٨٨٢ ، وزيف انتخابات - على درجتين - دفعت الى مقاعد البرلمان بالدمى
التي يريدونها . وغير هذا من الاجراءات التي صادرت تماماً كافة حريات الجماهير الشعبية ،
ومن ثم فجرت مراحل الغضب الشعبي العارم في تلك الفترة ، وعاش شعبنا مرحلة من
اكثر مراحل حياته خصوبة في الكفاح من اجل الديمقراطية .

لذلك كان عبد الرحمن الشرقاوي صادقاً مرتين : المرة الاولى حينما مركز قضية الحرية
في المكان المحوري من كل اعماله ، والمرة الثانية حينما اختار النادج الانسانية التي أدار من
خلالها كفاح شعبنا البطولي من اجل ديمقراطيته من البرجوازية الصغيرة . ذلك لأن
أبناء هذه الشريحة الاجتماعية ، ولظروف نوعية خاصة ، هم الذين قادوا بحق - في القرية
والمدينة - كفاح شعبنا من اجل الحرية ، اذ اتيح لهم في تلك الفترة ان يكونوا على درجة
نسبية من الوعي بحقيقة التناقضات التي كانت تحرك الواقع آنذاك . بينما كان الفلاحون
غير مدركين لأهمية هذه المعركة ، وان ظهر احساسهم بخطورتها واضحاً في « الارض » .
وكان العمال متفوقين في جماعات حرفية صغيرة ليست على القدر الكافي من الوعي الذي
يؤهلها لقيادة المعركة ، بينما تحالف الرأسمال العميل مع كبار ملاك الاراضي وعمل جاهداً
على مصادرة كافة حريات الجماهير الشعبية . ومن ثم لم تبق غير البرجوازية الصغيرة لتحمل
عبء المعركة .

وقد تركت هذه الرؤية الصادقة الصحيحة لابعاد الواقع ميسمها على روايات عبد الرحمن الشرقاوي الثلاث، التي ناقش فيها كل قضايا الواقع المصري من خلال هذه القضية، وان ترحلت أزمة الحرية في « قلوب خالية » عن المكان المحوري من البناء الروائي، اذ دارت احداث الرواية اثناء فترة الحرب العالمية الثانية حيث احتل الغلاء والازمة الاقتصادية مكان الصدارة من لوحة ازمان الواقع المصري حينئذ . كما كان الوفد في الحكم في هذه الفترة - وهو بتعبير تلك الايام بؤرة لقاء الاماني الشعبية وملتقى تطلعاتها؛ خاصة وقد وقف الوفد، خلال فترة حكومات العهد السياسي، بصلاية ويسارية (رغم مواقفه طوال حياته، خاصة وهو في السلطة : فالبرجوازية لا تشدد يساريتها الا وهي خارج الحكم) الى جانب الجماهير الشعبية في معركتها من اجل حريتها .

اما « الارض » و « الشوارع الخلفية » اللتان دارت احداثهما في الفترة الممتدة من ١٩٣٠ الى ١٩٣٦، حيث كانت أزمة الحرية هي قضية الشعب الاساسية، فاننا نجد ان عبد الرحمن الشرقاوي قد بثّ هذه الازمة بذلك حتى خلال الاحداث اليومية الصغيرة، واستطاع بمهارة فنية فائقة ان يربط كافة جزئيات الحياة اليومية البسيطة بقضية الشعب في تلك الفترة - قضية الحرية - وان يؤكد لنا ان غياب الدستور كامن وراء فصل سعد من المدرسة في « الشوارع الخلفية » ووراء عدم توفر المياه الكافية لري اراضي الفلاحين في « الارض ». وان الجو الذي تغيب عنه الحرية يموت فيه كل شيء حتى الثبات، المعادل المباشر للحياة . كما اكد في الوقت نفسه ان هذه الحرية لن تعود دون كفاح شعبي مرير من اجلها . لذلك فانه يدير في مئات الصفحات - في « الارض » و « الشوارع الخلفية » - عريضة صغيرة يجمع عليها توقيعات الناس من اجل مطالبهم البسيطة، من اجل ان يعود سعد الى مدرسته التي فصل منها، وان تعود المياه - الحياة - الى التدفق في شرايين القرية؛ مؤكداً ان كافة التراكمات الكمية الصغيرة لا بد ان تؤدي في النهاية الى تغيرات كيفية تساهم في بعث الفجر الجديد وتسارع من طلوع شمس . وانطلاقاً من هذا الاعتقاد فانه يقدم في الوقت نفسه ثقته المتزايدة في التنظيمات الشعبية، واحترامه المتزايد لكافة الاساليب الكفاحية مهما صغرت، مؤكداً عبر احداث رواياته الثلاث حتمية جدواها وعظمة مفعولها.

ولأنه فنان صادق، فانه يجمع كافة الجزئيات الصغيرة المؤكدة لعدالة القضية التي يدافع عنها، فنجد مثلاً ان مدرس التاريخ يقف الى جوار سعد في معركته الضارية مع

اوتوقراطية الناظر المستبد ، تلك المعركة التي انتصر فيها سعد ، التلميذ الصغير ، على الناظر المستبد العميل - ولا غرو : فقد كان مدرس التاريخ والطلبة ، او بمعنى آخر التاويخ الانساني كله ، والجموع ، في صف هذا التلميذ الصغير ، ومن ثم تحتم انتصار قضيته العادلة . هذا الى جانب رصده لكافة مظاهر التفسخ في المجتمع وتأكيده ان هذا التفسخ وليد انتفاء الحرية وغيابها . وانه لو كانت ثمة مؤسسات شعبية جماهيرية وتنظيمات طلابية وفلاحية لأمكن لهذه التنظيمات والمؤسسات ان تحمي حرية الجماهير من الاغتيال . فيقول في « الشوارع الخلفية » بأنه لو كانت ثمة اتحادات لطلاب المدارس الثانوية لتمكنت من الوقوف في مواجهة استبداد الناظر واوتوقراطيته ، ولأعادت كافة جماعات النشاط المدرسي التي اوقف نشاطها بعد ان تيقن من فاعلية تأثيرها عليه ، واستطاعتها ان تحد من اوتوقراطيته ، باعتبارها احدى وسائل الكفاح الجماهيرية . كل هذا تمكن الشرقاوي من ان يقدمه لنا بطريقة فنية مقنعة ، عبر رواياته الثلاث ، التي تزاوجت فيها الرؤية الفاعمة لحقيقة التناقضات التي يتحرك من خلالها الواقع ، بشغافية الاحساس الفني الذي يلتقط من الواقع أدق الدقائق التي تؤكد - دون تقريرية - المضمون الذي يريد الكاتب تقديمه . ولنكتف الآن بهذا القدر من الحديث عن معالجة الشرقاوي لأزمة الحرية لنرى كيف عاجلها غيره من الكتاب .

سنجد ان معالجة نجيب محفوظ للقضية جاءت مختلفة نسبياً عن معالجة الشرقاوي لها ، وذلك لاختلاف المنطلق الفني الذي يقدم كل منهما اخلاله رؤيته للواقع من جهة ، واختلاف نوعية هذه الرؤية من جهة اخرى . فقد حاول نجيب محفوظ - مخلصاً - ان يحمل في رواياته ، على طول مراحل تطوره الروائي حتى الثلاثية ، كافة قضايا الواقع دون تحيز لواحدة على حساب الاخرى . وقد حملت هذه العدالة بين طياتها وجهاً من الظلم خفياً ، اذ توزع اهتمام الكاتب بالتساوي بين قضايا لا تحتل مكانات متساوية من لوحة قضايا الواقع . ولكن ليس هذا مجال دراستنا ، فقد عبر نجيب محفوظ في رواياته عن قضية الحرية ، والمهم ان نعرف الآن كيف تم هذا التعبير .

فمن البداية شغلت هذه القضية نجيب محفوظ ، حتى في مرحلته التاريخية الاولى (« عبث الاقدار » و « رادوبيس » و « كفاح طيبة ») ، اذ تمكن فيها ومن خلال اطار موغل في القدم - التاريخ الفرعوني - ان يناقش قضايا شديدة المعاصرة ، مثل قضية الموقف من الاستعمار وقضية الحرية وقضية التخلف الحضاري وغيرها . غير ان هذه المعالجة ما لبثت

ان ازدادت عمقا ووضوحاً في المرحلة الاجتماعية (« زقاق المدق » و « فضيحة في القاهرة » و « بداية ونهاية » و « خان الخليلي ») . ثم عثرت على اعماقها الحقيقية في مرحلة الثلاثية (« بين القصرين » و « قصر الشوق » و « السكرية ») . في هذه المراحل الثلاث كلها كان اهتمام محفوظ - كما قلت - موزعاً بالتساوي بين كافة قضايا الواقع . غير انه في المرحلة الرابعة ، المرحلة الروائية الجديدة ، التي تحتوي على « اللص والكلاب » و « السمات والحريف » و « الطريق » ، قد ركز على هذه القضية دون سواها . وقدم عبر رواياته الثلاث تلك رؤية كاملة الابعاد لكافة ملامحها . ولنر في البداية كيف تمت معالجة نجيب محفوظ للقضية في نطاق مراحل الثلاث الاولى ، ثم نتناول بعد ذلك تعبيره عنها في المرحلة الرابعة التي تعد بالكثير .

خلال هذه المراحل الثلاث جاء علاجه لها - لأزمة الحرية - ضمن العلاج العفوي للواقع ككل . لذلك يصعب علينا ان نتصيد خلالها رأياً متكاملاً في هذه المعركة ، ولكننا سنجد تركيزاً مستمراً على العناق الدائم بين قضيتي الحرية والاستقلال . كما يمكننا ان نلمح بعض ايجاءات تفصيلية لأزمة الحرية على حدة في « القاهرة الجديدة » (او « فضيحة في القاهرة ») وفي « خان الخليلي » ثم في الثلاثية . صحيح ان القضية الاجتماعية كانت المرتكز المحوري لهذه الاعمال الروائية ، الا انه صحيح ايضاً ان ازمة الحرية كانت وثيقة الالتحام بهذه القضية ، بل هي اذا تعمقنا الواقع قليلاً من أهم أسبابها الجذرية . ومن ثم جاءت هذه الازمة واضحة في هذه الاعمال . وقد كان نجيب محفوظ واعياً - هو الآخر - لتلك الحقيقة المؤكدة لأن قيادة معركة الحرية كانت للبرجوازية الصغيرة . فالتقط نماذجها التي عالج من خلالها ازمة الحرية من هذه الشريحة الاجتماعية ، وان أهمل تماماً ما تقبى اليه الشرقاوي من بداية مشاركة العمال والفلاحين في المعركة والتي قدمها من خلال الاسطى عبد المعبود في « الشوارع الخلفية » وكثير من الفلاحين في « الارض » . فقد أهمل نجيب محفوظ هذه الحقيقة تماماً ، وعالج القضية من خلال البرجوازية الصغيرة وحدها ، وقدم انعكاس هذه الازمة على كافة فئاتها وشرائعها ، ووصف كيف قدمت هذه الطبقة توضيحات عديدة في سبيل هذه القضية ، مثل فهمي في « بين القصرين » واحمد و ابراهيم شوكت في « السكرية » ومحبوب عبد الدائم بشكل ما في « القاهرة الجديدة » .

غير ان تركيز نجيب محفوظ على هذه القضية لم يظهر واضحاً الا في المرحلة الاخيرة . في هذه المرحلة اكتسبت القضية نوعية جديدة ، ومن ثم تمايزت نوعية التعبير عنها ، فلم

تجدد المقضية قضية رصم الكفاح البطولي لفك وفاق بروميشيوس، ولكنها أصبحت القول بأن بروميشيوس موثق في مجوده هذه المقولة فحسب، وسط دواخل التأكيدي بأن ليس كذلك، فان كان هذا التأكيدي صحيحاً - تطرح الروايات السؤال - فلماذا طاشت خبرات سعيد وهو الابن ولماذا فقد وعي كنهه؟ ولماذا لم يعثر تصاريه على ابنته؟ على سعيد البرجيني؟ لماذا لم يتمكن سعيد من ان يطلع رداً للص والكلاب - يعني تحقيق الانتقام من الكلاب والاسباب حياته الغامض الذي جرد طوله الرعاية في ان يسلب عليها؟ ولماذا فقد وعي خطيئة شرايته في الليالي والظروف المظلمة عاشت كالأغصان بلا دور، كمنحرف في المقام في كبريات الأيام الخالية؟ ولماذا لم تقب التهمة صابراً في الطريق؟ وهو يبحث في الخسائر وبلا اهل، عن الاب المفقود؟ ان هذا الجو المازوم الذي تعبق برواياته جميع احتمالات هذه الروايات الثلاث يؤكد، بل لا يدع مجالاً للشك، ان بروميشيوس موثق، وان الشكل النوعي الجديد الأثمة من الذي ابتدأ من خلال طامه في عني الجديد أيضاً، من خلال معاقرة جريته لأحداث الواقع الضمنية في كشف عن ثغره هذه الأحداث وتطبيقها بطريقة فنية نادرة وشديدة النضوج والوعي، كما يفوق طاقتها من زعمان وإيجارات، وبذلك تمكن نجيب محفوظ من مرافقة سائر قضايا الواقع المعاصر، واحتضانها والتعبير بخلصها عمداً في أعماقها، هو كذا أدور الفن المعاصر في تزويد امكانيات الرؤية لدى القاري هذه، اما يوسف ادريسي فقد جاءت معالجته للقضية ومختلفة المرحلة ما عن معالجة كل من الشين قاوي ومحمود هارو، فيوسف ادريسي من الجيل التالي للذين الفنانين، ومن ثم فإنه لم يشهد فقر الكفاح البطولي من اجل الحرية في ثلاثينات القرن، وأربعيناته، لا حتى ترقوي منها لجدد رواياته، ولكنه يخلص في امرجته التالية، ومن ثم فإنه يستقطب في روايته قصة حب، أكثر سنوات هذه المرحلة، ثم انهم من خلالها رؤيتهم لهذه الأزمة اعني عام ١٩٥٥، ذلك العام الذي فقدت فيه الجماهير الشعبية ثقتهم بالحكومة فجمعت السلاح وخرجت وحدها تحارب من اجل حريتها، تحقيق لنفسها الاستقلال، في قلبك الفقرة دارت معاركه القتالية المعروفة، ثم كثرت هذه الثورات من إشعال الهيب الغضب الشعبي العام، في المنطقة، ككل، في هبات المظاهرات التي اندلعت في مدينة فيلادلفيا البوليس السياسي في إختيار جهة هذا الغضب، وتطوع للجرير حتى الجنات، ومن خلال حزمة بطول قصة محبوبة، قدم يوسف ادريسي زكافة ما كانت ترتفع به وحداثات هذه الفترة من تناقضات، مؤكداً ان التهام البطول المنفرد من اجل الحرية بجماهير الشعب هو

تركت ظلالها الكثيفة فوق تناول الفنانين الروائي لهذه القضية ، اذ لم تقدم القضية في أغلب هذه الكتابات كمطلب جماهيري يطرحه واقع النضال اليومي ، ولكن كمطلب ميتافيزيقي ينبثق عن تزايد الاحساس بالكينونة. هذا بالرغم من أن شعوب هذه المنطقة قد خاضت كفاحاً قاسياً ومريراً من أجل هذه الحرية ، وعاشت بحق فترات طويلة في ظل هذه الأزمة . ولنبداً بأزمة الحرية عند الكاتب السوري مطاع صفدي ، لنرى كيف تمت معاقرة الروائية لهذه الأزمة .

سنجد ان مشكلة الحرية قد عولجت عند مطاع صفدي ضمن المنطق الشكلي التجريدي الذي تنطلق عبره رؤيته للواقع ، والذي تغلف غلالته الكثيفة مع مزيج من الفلسفة الوجودية كل ما كتب مطاع صفدي من دراسات او قصص . واكثر رواياته معالجة لهذه المشكلة هي «جيل القدر» التي طرح فيها هذه القضية من خلال الاحداث العربية المعاصرة ، وعبر المزاوجة الفنية بين حرية بطله الوجودية والرغبة فقط في بلورة ذاتيته ، وبين تحديات الواقع العربي المعاصر الذي تدفع جزئياته في كل لحظة هذا البطل الى التخلي عن شكلية رؤيته وتجريديتها ، ولكنه يظل حتى النهاية متمسكاً بهذه الشكلية وهذا التجريد . لذلك فانه بعد تأزم موقفه يفشل تنظيمه في اغتيال الديكتاتور - الذي أكد لنا الكاتب ان رغبة شخوصه في اغتياله ليست نابعة بالدرجة الاولى من رفضهم لاولتوقراطية ورغبتهم في اغتيال الشروط اللاديمقراطية للحياة المتمثلة فيه ، ولكن من ولعهم المرضي بممارسة حرية القتل ، من شعبية رغبتهم في تحقيق ذاتيتهم . ولهذا كان ارتواء فشل الاغتيال من عبثية المصادفة على درجة كبيرة من الفنية والنضوج . وكان لا بد ان يدفعهم ، كما حدث ، بين برائن تمزقات حادة نابعة من عنف الهزيمة الذاتية . فانطلق حسان الى حلب ، بينما انطلق نبيل الى الجزائر التي يوالي فيها ذات فهمه الشكلي للحرية . فيصرخ وهو على الارض التي يموت بنوها كي تنبت الحرية للصفار : «انني اكره ان يموت احداً من اجل الشعب الجزائري او العراقي او السوري . ان العربي يموت اليوم لأن هذا هو مصيره » . ولهذا جاء فشل هذا الجيل الذي ارتوى من مناهل الحضارة الاوربية في تحقيق حريته ، سواء بعمله الذاتي او عمل منظماته المنطلقة هي الاخرى من المنطق الشكلي نفسه ، شهادة دامغة على عدمية هذا الدرب وعلى خوائية المصير المفضي اليه .

وثمة رواية اخرى تجسد ازمة الحرية بالمفهوم الوجودي ايضاً ، وان كان بطريقة اكثر نضجاً واكثر معقولة . تلك هي رواية سهيل ادريس « اصابعنا التي تشرق » التي جسدت

لنا هذه الازمة من خلال التمزق الملتهب الذي يعانيه بطلاها سامي و كريم الهادي بين يقينية ايمانهم بالالتزام على الصعيد الفكري ، ونفورهم من هذا الالتزام على الصعيد السياسي . ومن ثم جاءت ثقتهم الزائدة عن الحد في قوة كلماتهم ، وفي ذلك الالتزام التلقائي الذي يفرضه منطق الاحداث ، غير كافية لتصيد كافة ابعاد ازمة الحرية . وان لم تكن تلك الازمة هي مرتكز الرواية المحوري ، الا انها كانت واحدة من ازماتها الاساسية ؛ وادراج هذه الازمة ضمن القضايا التي تعالجها الرواية في اطارها المعاصر ، في حد ذاته ، ثم تعمق بعض ابعادها ، يسجل للرواية فهمها الناضج لجزئيات الواقع وتصيدها لسائر قضاياها ، وان سجلنا عليها عدم اهتمامها بابرار سائر ابعاد هذه الازمة وربطها بأرضيتها الواقعية . اما عبد السلام العجيلي فانه ينهج نهجاً مختلفاً عن سهيل ادريس ومطاع صفدي . فهو لم يغلف معالجته لقضية الحرية برداء وجودي ، ولكنه يقدم مفهومه عن ازمته من خلال لحظة الحاضر المكثفة التي يعيشها سليمان بطل روايته « باسمه بين الدموع » . تمزقات حادة بين علاقته الجسدية بباسمة وحبه الافلاطوني لالهام ، بعد ان ارتكن تماماً الى انه أدى واجبه على الصعيد الوطني في المناقشة من اجل قضية الحرية ، بكلماته الملتبسة في افتتاحية الجريدة وخطبه العديدة في قاعة الحزب ، وعليه بعد ذلك ان ينصرف لممارسة حريته في بقية علاقاته .

لا يبقى بعد ذلك سوى ازمة الحرية الوجودية في الرواية النسائية المعاصرة ، والتي يمكن رصدها عبر كل كتابات المرأة العربية في « انا أحيا » و « الآلهة المسوخة » لليلى بعلبكي و « لن نموت غداً » لليلى عسيان و « ايام معه » و « ليلة واحدة » لكويت سهيل و « طيور ايلول » لاميلى نصرالله ، وغيرها . في كافة هذه الروايات يرتوي الفهم الروائي لأزمة الحرية ، من يقن كل كاتبة على حدة بوجود ما يمكن ان نسميه ازمة حرية المرأة العربية ، ومن رغبتها في تحرير نساء جيلها من ربة العبودية التي يضعهن فيها واقعا العربي المعاصر . وقد جنت حدة هذه الرغبة على كافة هذه الروايات فأفقدت صاحباتها الرؤية الصحيحة لجزئيات الواقع خلال حدة توقهن الى الصراخ - بطريقة تتراوح بين المباشرة الساذجة والاقناع الغني - بضرورة ان يتمتعن بالحرية : الحرية الذاتية التي ما تلبث رغبتن في التسربل بفلاتها الذهبية ان تخلع هذه الغلالة عن كتفي الرجل ، اذ يعتقدن انه هو العائق الوحيد دونهن وهذه الغلالة الذهبية . ومن ثم يصبح هذا الرجل الفاقد للحرية غير

